



الْقُرْآنُ كِتَابٌ حَكِيمٌ مَفْهُومُهَا وَمَنَافِعُهَا



الشيخ

إبراهيم بن عبد الله الزوي





الْقِسْمَاتِ

مَفْهُومَهَا وَمَنَافِعُهَا

الْقِسْمَانِ
مَفْهُومَهَا وَمَنَافِعُهَا

الشيخ

إبراهيم بن أحمد الزرعي

شبكة بيتونة للعلوم الشرعية

حقوق الطبع محفوظة

للمزيد من الكتب



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ



@BaynoonanetUAE



@Baynoonanet



www.baynoona.net

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ
 بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، من يهده الله
 فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن
 لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا
 عبده ورسوله، ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ وَلَا
 تَمُوتُوا إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢]، ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا
 رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا
 كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ
 رَقِيبًا﴾ [النساء: ١]، ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا
 سَدِيدًا ﴿٧٠﴾ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَنْ
 يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٧٠ - ٧١]،
 أما بعد؛ فإن أصدق الحديث كتاب الله، وخير الهدي
 هدي محمد صلى الله عليه وسلم، وشر الأمور محدثاتها،

وكل محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة، وكل ضلالة في النار، أما بعد:

فلما كانت هذه الدنيا دار ممر ومعبر إلى الآخرة وجب التزود منها بالقدر الذي يصل به الإنسان إلى الآخرة، ولذلك وجب على المرء أن يقنع بما آتاه الله **عَزَّوَجَلَّ**، وليعلم أن الغنى هو غنى النفس، وليس كثرة المال والمتاع، كما قال النبي **صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ**: «لَيْسَ الْغِنَى **عَنْ كَثْرَةِ الْعَرَضِ، وَلَكِنَّ الْغِنَى غِنَى النَّفْسِ**»^(١)، ولكن الناظر في أحوال الناس اليوم يجد أن الدنيا ألهمتهم عن طاعة الله، بل شغلت قلوبهم عن الواجبات مثل أداء الصلاة وتربية الأبناء وغيرها من الواجبات، هذه الدنيا دار ممر لا مقر، دار عمل لا نعيم، والنبي **صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ** كان يقول: «**مَا لِي وَلِلدُّنْيَا؟ مَا أَنَا فِي الدُّنْيَا إِلَّا كَرَابٍ**

(١) رواه البخاري (٦٤٤٦)، ومسلم (١٠٥١).

اسْتَنْظَلَ تَحْتَ شَجَرَةٍ ثُمَّ رَاحَ وَتَرَكَهَا» (٢)، والنبي

صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ رغبنا في القناعة، فقال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «طُوبَى

لِمَنْ هَدِيَ لِلْإِسْلَامِ، وَكَانَ عَيْشُهُ كَفَافًا وَقَنَعَ» (٣)، فلنا في

رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أسوة حسنة، إن من أسباب انشغال

الناس بالدنيا والإقبال عليها هو الطمع فيها، والحرص

عليها، لذلك نتكلم عن القناعة، عن مفهومها وصورها

وفوائدها، ما هي الأسباب التي تنال بها القناعة؟ هناك

أسباب تمنع القناعة ما هي؟ من خلال هذه النقاط

تدور هذه المحاضرة.

أما مفهوم القناعة فهناك علاقة متينة بين القناعة

وبين الزهد والرضا، لذلك عرف بعض أهل اللغة

القناعة بالرضا، والقانع بالراضي كما في لسان العرب

لابن منظور رَحِمَهُ اللَّهُ، كذلك يقول ابن فارس رَحِمَهُ اللَّهُ:

(٢) رواه ابن ماجه (٤١٠٩)، والترمذي (٢٣٧٧).

(٣) رواه الترمذي (٢٣٤٩)، وهو في صحيح الجامع الصغير (٣٩٣١).

«قَنَعَ قَنَاعَةً، إِذَا رَضِيَ، وَسَمَّيْتُ قَنَاعَةً لِأَنَّهُ يُقْبَلُ عَلَيَّ الشَّيْءَ الَّذِي لَهُ رَاضِيًا»^(٤)، عرف شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللهُ الزهد بقوله: «هو ترك الرغبة فيما لا ينفع في الدار الآخرة وهو فضول المباح التي لا يستعان بها على طاعة الله»^(٥)، وبعض أهل العلم قسم القناعة وجعل أعلى مراتبها الزهد، كما فعل الماوردي رَحِمَهُ اللهُ حيث قال: «والقناعة قد تكون على ثلاثة أوجه: فالوجه الأول: أن يقنع بالبلغة من دنياه، ويصرف نفسه عن التعرض، وهذا أعلى منازل القناعة. وقال مالك بن دينار: أزهد الناس من لا تتجاوز رغبته من الدنيا بلغته، والوجه الثاني: أن تنتهي به القناعة إلى الكفاية، ويحذف الفضول والزيادة، وهذه أوسط حال المقتنع، والوجه الثالث: أن تنتهي به

(٤) معجم مقاييس اللغة (٥/ ٣٣).

(٥) مجموع الفتاوى (١٠/ ٢١).

القناعة إلى الوقوف على ما سنع، فلا يكره ما أتاه وإن كان كثيرا، ولا يطلب ما تعذر وإن كان يسيرا، وهذه الحال أدنى منازل أهل القناعة؛ لأنها مشتركة بين رغبة ورهبة، أما الرغبة؛ فلأنه لا يكره الزيادة على الكفاية إذا سئحت، وأما الرهبة؛ فلأنه لا يطلب المتعذر عن نقصان المادة إذا تعذرت»^(٦)، بناءً على تقسيم الماوردي **رَحْمَةُ اللَّهِ** فإن المنزلة الأولى هي أعلى منازل القناعة، وهي الزهد أيضا، والمنزلة الثالثة هي التي عليها أكثر الذين عرفوا القناعة، وهي المرادة بمحاضرتنا إذا تكلمنا عن القناعة على هذا المعنى، إن القناعة لا تمنع التاجر من تنمية تجارته، ولا أن يضرب المسلم في الأرض يطلب رزقه، ولا أن يسعى المرء فيما يعود عليه بالنفع، بل كل ذلك مطلوب ومرغوب، وإنما الذي يتعارض مع القناعة أن يغش

(٦) أدب الدنيا والدين (ص ٣٢٨).

التاجر في تجارته، أن يتسخط الموظف من مرتبته، أن يتبرم العامل من مهنته، أن ينافق المسؤول من أجل منصبه، وأن يتنازل الداعية عن دعوته أو يميع مبدأه رغبة في مال أو جاه، وأن يحسد الأخ أخاه على نعمته، أن يذل المرء نفسه لغير الله تعالى للحصول مرغوب، ليس القانع ذلك الذي يشكو خالقه ورازقه إلى الخلق، ولا الذي يتطلع إلى ما ليس له، ولا الذي يغضب إذا لم يبلغ ما تمنى من رتب الدنيا؛ لأن الخير له قد يكون عكس ما تمنى، في المقابل إن القناعة لا تأبى أن يملك العبد مثاقيل الذهب والفضة، ولا أن يمتلئ صندوقه بالمال، ولا أن تمسك يداه الملايين لكن القناعة تأبى أن تلج هذه الأموال قلبه، وتملك عليه نفسه حتى يمنع حق الله فيها، حتى يتكاسل عن الطاعات ويفرط في الفرائض من أجلها، ويرتكب المحرمات من ربا ورشوة وكسب خبيث حفاظا عليها أو تنمية لها،

كم من صاحب مال وفير وخير عظيم رزق القناعة، فلا غش في تجارته، ولا منع أجراه حقوقهم، ولا أذل نفسه من أجل مال أو جاه، ولا منع زكاة ماله بل أدى حق الله فيه فيها فرضاً وندباً مع محافظة على الفرائض واجتناب للمحرمات، إن ربح شكر وإن خسر رضي، فهذا قنوع وكم من مستور يجد كفافاً ملاً الطمع قلبه حتى لم يرضه ما قسم له، فجزع من رزقه وغضب على رازقه، وبث شكواه للناس وارتكب كل طريق محرم حتى يغني نفسه، فهذا منزوع القناعة وإن كان لا يملك درهما ولا فلساً، يقول الحافظ ابن رجب **رَحِمَهُ اللهُ**: «وقد تكاثرت الأحاديث عن النبي **صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ** بالأمر بالاستعفاف عن مسألة الناس والاستغناء عنهم، فمن سأل الناس ما بأيديهم، كرهوه وأبغضوه؛ لأن المال محبوب لنفوس بني آدم، فمن طلب منهم ما يحبونه، كرهوه لذلك»^(٧)،

(٧) جامع العلوم والحكم (٢/١٦٨).

القبائح

ممنوعها ومنها فعما

فإذا نظرنا إلى قناعة النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وجدنا المثل الأعلى، لقد كان رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أكمل الناس إيمانا و يقينا، وأقواهم ثقة بالله تعالى، وأصلحهم قلبا، وأكثرهم قناعة ورضا بالقليل حتى كان صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يفرق المال العظيم الوادي والواديين من الإبل والغنم، ثم بيت طاويا وكان الرجل يسلم من أجل عطائه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ثم يحسن إسلامه، قال أنس رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: «إِنْ كَانَ الرَّجُلُ لَيْسَ لِمَا يُرِيدُ إِلَّا الدُّنْيَا، فَمَا يُسَلِّمُ حَتَّى يَكُونَ الْإِسْلَامُ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِنَ الدُّنْيَا وَمَا عَلَيْهَا»^(٨)، وقال أنس رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أيضا: «مَا سُئِلَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَلَى الْإِسْلَامِ شَيْئًا إِلَّا أَعْطَاهُ، قَالَ: فَجَاءَهُ رَجُلٌ فَأَعْطَاهُ غَنَمًا بَيْنَ جَبَلَيْنِ، فَرَجَعَ إِلَى قَوْمِهِ، فَقَالَ: يَا قَوْمِ اسْلِمُوا، فَإِنَّ مُحَمَّدًا يُعْطِي عَطَاءً مِنْ لَا يَخْشَى الْفَاقَةَ»^(٩)، وإذا أيضا نظرنا إلى قناعته صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أمثلة كثيرة،

(٨) رواه مسلم (٢٣١٢).

(٩) رواه مسلم (٢٣١٢).

فقد روت عائشة رَضِيَ اللهُ عَنْهَا تخاطب عروة ابن الزبير قالت:

« وَاللَّهِ يَا ابْنَ أُخْتِي إِنْ كُنَّا لَنَنْظُرُ إِلَى الْهَيْلَالِ، ثُمَّ الْهَيْلَالِ، ثُمَّ الْهَيْلَالِ، ثَلَاثَةَ أَهْلَةٍ فِي شَهْرَيْنِ، وَمَا أُوْقِدَ فِي آيَاتِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ نَارٌ، قَالَ: قُلْتُ: يَا خَالَهٗ فَمَا كَانَ يُعَيِّشُكُمْ؟ قَالَتْ: « الْأَسْوَدَانِ التَّمْرُ وَالْمَاءُ، إِلَّا أَنَّهُ قَدْ كَانَ لِرَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ جِيرَانٌ مِنَ الْأَنْصَارِ، وَكَانَتْ لَهُمْ مَنَاحِحُ، فَكَانُوا يُرْسِلُونَ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنْ أَلْبَانِهَا، فَيَسْقِيْنَاهُ» ^(١٠)، وقالت رَضِيَ اللهُ عَنْهَا: « لَقَدْ مَاتَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَمَا شَبَعَ مِنْ خُبْزٍ، وَزَيْتٍ فِي يَوْمٍ وَاحِدٍ مَرَّتَيْنِ » ^(١١)، هذه قناعته صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قالت عائشة رَضِيَ اللهُ عَنْهَا: « كَانَ فِرَاشُ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنْ أَدَمٍ، وَحَشْوُهُ مِنْ لَيْفٍ » ^(١٢)، وهكذا يقول ابن مسعود رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: نَامَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَلَى حَصِيرٍ فَقَامَ وَقَدْ أَثَّرَ فِي جَنْبِهِ، فَقُلْنَا:

(١٠) رواه البخاري (٢٥٦٧)، ومسلم (٢٩٧٢).

(١١) رواه مسلم (٢٩٧٤).

(١٢) رواه البخاري (٦٤٥٦)، ومسلم (٢٠٨٢).

يَا رَسُولَ اللَّهِ لَوْ اتَّخَذْنَا لَكَ وَطَاءً، فَقَالَ: «مَا لِي وَلِلدُّنْيَا، مَا أَنَا فِي الدُّنْيَا إِلَّا كَرَائِبٍ اسْتَظَلَّ تَحْتِ شَجَرَةٍ ثُمَّ رَاحَ وَتَرَكَهَا»^(١٣)، فما هي فوائد القناعة؟ القناعة لها

فوائد كثيرة تعود على المرء بالسعادة والراحة والأمن والطمأنينة في الدنيا والآخرة، من هذه الفوائد الحياة الطيبة، قال الله عَزَّجَلَّ: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّنْ ذَكَرٍ أَوْ أَنَّىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهٗ حَيٰوةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [النحل: ٩٧]، فسر الحياة الطيبة

علي وابن عباس والحسن رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ قالوا: الحياة الطيبة هي القناعة، كما ذكر ذلك الطبري في تفسيره^(١٤)، وفي هذا المعنى قال ابن الجوزي رَحِمَهُ اللهُ: «من قنع، طاب عيشه، ومن طمع، طال طيشه»^(١٥)، أيضا من فوائد القناعة: امتلاء القلب بالإيمان بالله عَزَّجَلَّ والثقة به

(١٣) رواه ابن ماجه (٤١٠٩)، والترمذي (٢٣٧٧).

(١٤) جامع البيان في تأويل القرآن (١٧/ ٢٩٠).

(١٥) سير أعلام النبلاء (٢١/ ٣٧٢).

والرضا بما قدر وقسم، وقوة اليقين بما عنده **سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى** ذلك أن من قنع برزقه فإنما هو مؤمن ومتيقن بأن الله **عَزَّجَلَّ** قد ضمن أرزاق العباد، وقسمها بينهم حتى ولو كان ذلك القانع لا يملك شيئاً، امتلاء القلب بالإيمان بالله والرضا به، والرضا بما قدر وقسم هذه من فوائد القناعة، فعلينا أن نتدرب على إيجاد هذا الخلق في نفوسنا، أيضاً من فوائد القناعة تحقيق شكر المنعم **سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى** لأن من قنع برزقه شكر الله تعالى عليه، ومن تقاله له قصر في الشكر وربما جزع وتسخط والعياذ بالله، لذلك يقول النبي **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ**: « **كُنْ وَرِعًا، تَكُنْ أَعْبَدَ النَّاسِ، وَكُنْ قَنَعًا، تَكُنْ أَشْكَرَ النَّاسِ** »^(١٦)، أيضاً من فوائد القناعة: الفلاح والبشرى لمن قنع، فعن فضالة بن عبيد **رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ** أنه سمع رسول الله **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ** يقول:

(١٦) رواه ابن ماجه (٤٢١٧).

« طُوبَى لِمَنْ هَدِيَ لِلْإِسْلَامِ، وَكَانَ عَيْشُهُ كَفَافًا

وَقَنَعٌ »^(١٧)، إِذَا الْفَلَّاحُ وَالْبَشْرَى لَمَنْ قَنَعَ، الْبَشْرَى

بِالْجَنَّةِ لَمَنْ قَنَعَ، أَيْضًا مِنْ فَوَائِدِ الْقِنَاعَةِ: الْوَقَايَةُ مِنْ

الذُّنُوبِ هَذِهِ الذُّنُوبُ الَّتِي تَفْسِدُ الْقَلْبَ وَتَذْهَبُ

الْحَسَنَاتِ، كَالْحَسَدِ وَالْغِيْبَةِ وَالنَّمِيمَةِ وَالْكَذْبِ وَغَيْرِهَا

مِنْ الْخِصَالِ الذَّمِيمَةِ وَالْآثَامِ لِمَاذَا، لِأَنَّ الْحَامِلَ عَلَى

الْوُقُوعِ فِي كَثِيرٍ مِنْ تِلْكَ الْكِبَائِرِ غَالِبًا مَا يَكُونُ اسْتِجْلَابُ

دُنْيَا، أَوْ دَفْعُ نَقْصِ هَذِهِ الدُّنْيَا، فَمَنْ قَنَعَ بِرِزْقِهِ لَا يَحْتَاجُ

إِلَى ذَلِكَ الْإِثْمِ، لَا يَدْخُلُ قَلْبُهُ حَسَدًا لِإِخْوَانِهِ عَلَى مَا

أُوتِيَ لِمَاذَا لِأَنَّهُ رَضِيَ بِمَا قَسَمَهُ اللَّهُ **عَزَّجَلَّ** لَهُ، وَلِذَلِكَ

قَالَ ابْنُ مَسْعُودٍ **رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ**: «الْيَقِينُ أَنْ لَا تُرْضِيَ النَّاسَ

بِسَخَطِ اللَّهِ وَلَا تَحْسَدَ أَحَدًا عَلَى رِزْقِ اللَّهِ وَلَا تَلْمُ أَحَدًا

عَلَى مَا لَمْ يُؤْتِكَ اللَّهُ **عَزَّجَلَّ** فَإِنَّ الرِّزْقَ لَا يَسُوقُهُ حِرْصُ

حَرِيصٍ وَلَا يَرُدُّهُ كَرَاهِيَةٌ كَارِهِهْ فَإِنَّ اللَّهَ **تَبَارَكَ وَتَعَالَى** بِقِسْطِهِ

(١٧) رواه الترمذي (٢٣٤٩)، وهو في صحيح الجامع الصغير (٣٩٣١).

وَعِلْمِهِ وَحِكْمَتِهِ جَعَلَ الرَّوْحَ وَالْفَرْجَ فِي الْيَقِينِ وَالرِّضَا
 وَجَعَلَ الْهَمَّ وَالْحَزْنَ فِي الشَّكِّ وَالسُّخْطِ»^(١٨)، أيضا
 من فوائد القناعة: حقيقة الغنى تكون في القناعة، لذلك
 رزقه الله **عَزَّوَجَلَّ** نبيه محمدا **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ** وامتن عليه بها،
 فقال الله **عَزَّوَجَلَّ**: ﴿ **وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَى** ﴾ [الضحى: ٨]، ذكرها
 بعض أهل العلم قالوا: أغنى نزلوها على غنى النفس
 لأن الآية مكية، ولا يخفى ما كان فيه النبي **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ**
 قبل أن تفتح عليه خيبر وغيرها من قلة المال، أيضا
 من فوائد القناعة: العز بالقناعة والذل في الطمع لماذا؛
 لأن القانع لا يحتاج إلى الناس، لا يزال عزيزا بينهم،
 أما الطماع يذل نفسه من أجل المزيد، ولذا جاء في
 حديث سهل بن سعد من قوله **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ**: « **شَرَفُ**
الْمُؤْمِنِ قِيَامُهُ بِاللَّيْلِ، وَعِزُّهُ اسْتِعْنَاؤُهُ عَنِ النَّاسِ »^(١٩)،

(١٨) اليقين لابن أبي الدنيا (ص ٤٧).

(١٩) رواه الطبراني في المعجم الأوسط (٤٢٧٨)، والحاكم (٧٩٢١)، وهو في صحيح
 الجامع (٧٣).

وكان محمد بن واسع رَحْمَةُ اللَّهِ يبُلُّ الخبز اليابس بالماء ويأكله ويقول: «من قنع بهذا لم يحتاج إلى أحد»^(٢٠)، وقال الحسن رَحْمَةُ اللَّهِ: «لَا تَزَالُ كَرِيمًا عَلَى النَّاسِ، وَلَا يَزَالُ النَّاسُ يُكْرِمُونَكَ مَا لَمْ تَتَعَاطَ مَا فِي أَيْدِيهِمْ، فَإِذَا فَعَلْتَ ذَلِكَ اسْتَخَفُّوا بِكَ وَكَرِهُوا حَدِيثَكَ وَأَبْغَضُوكَ»^(٢١)، هذه بعض الفوائد أيضا من القناعة ومنها كما أشرنا أن القناعة طريق العز والشرف والنزاهة؛ لأن العزة في القناعة والذل في الطمع كما قال أحد الحكماء: أنت أخو العز ما التحفت بالقناعة، هكذا أيضا راحة البدن والنفس والبال، أيضا من فوائد القناعة كما يقول الشاعر:

خذ القناعة في دنيك وارض بها لو لم يكن لك إلا راحة البدن
وهكذا أيضا يقول أحدهم: ليست السعادة بتحقيق
الأماني المادية ولا الملذات، ولا أهواء النفس البشرية

(٢٠) إحياء علوم الدين (٣ / ٢٩٣).

(٢١) حلية الأولياء (٣ / ٢٠).

إنما هي فقط في راحة البال في الرضا والقناعة، وهكذا القناعة كما يقولون: كنز عظيم، في الحكمة المشهورة: القناعة كنز لا يفنى، القناعة أيضا هي علامة من علامات التقوى ولذلك ورد عن علي رضي الله عنه بإسناد صحيح من تعريفه للتقوى: «هي الخوف من الجليل، والعمل بالتنزيل، والقناعة بالقليل، والاستعداد ليوم الرحيل»، هكذا فوائد القناعة كثيرة جدا ذكرنا بعضها، ما هي الأسباب التي تحول دون القناعة، الموانع التي تمنع المسلم من هذا الخلق أشار إلى ذلك الماوردي أيضا، ذكر الأسباب التي تمنع القناعة بالكفاية في كتابه «أدب الدنيا والدين» ذكر بعض الأسباب التي تمنع القناعة ومنها قال: «منازعة الشهوات التي لا تنال إلا بزيادة المال وكثرة المادة، فإذا نازعته الشهوة طلب من المال ما يوصله»^(٢٢)،

إذا شهوات الإنسان تنازعه وتحول بينه وبين القناعة، أيضا من الأسباب التي ذكرها أن يطلب الزيادة ويلتمس الكثرة ليصرفها في وجوه الخير، يتقرب بها في جهات البر، يصطنع بها المعروف، يغيث بها الملهوف فهذا أعذر و بالحمد أخرى وأجدر متى ما اتقى الحرام والشبهات، وأنفق في وجوه البر أيضا ذكر من الأسباب التي تحول دون القناعة أن يطلب الزيادة، يقتني المال ليدخره لأولاده ويخلفه لورثته إشفاقا عليهم من كلح الطلب، وسوء المنقلب، وهذا يقول: هذا شقي يجمعها مأخوذ بوزرها، قد استحق اللوم من وجوه لا تخفى على ذي لب منها سوء ظنه بخالقه أنه لا يرزقهم إلا من جهته، ومنها قال: الثقة بذلك على ولده مع نوائب الزمان ومصائبه، كذلك أيضا قال: ما حرم من منافع ماله وسلب من وفور حاله، وما لحقه من شقاء جمعه، وناله من عناء كده حتى صار ساعيا

محروما وجاهدا مذموما، وما يؤاخذ به من وزره وأثامه ويحاسب عليه من تبعاته وإجرامه، هذه ذكرها آثار لمن يطلب الزيادة، ويقتني الأموال ولا يقنع بما عنده، يطلب الزيادة بالمال واقتناء الأموال ليدخرها لأولاده، نسأل الله أن يعيذنا وإياكم من الأسباب التي تحول دون القناعة، هناك أسباب تنال بها القناعة، على المسلم أن يأخذ بهذه الأسباب، وهذه أهم ما في هذه المحاضرة بعد أن علمنا تعريف القناعة ومفهومها وعرفنا فوائدها وما هي الأسباب التي تحول دونها، نتعرف على الأسباب التي تنال بها القناعة، كيف نوجد هذا الخلق في حياتنا وفي أنفسنا، هذه مرتبة عالية كل يحب الوصول إليها والاتصاف بها، لكن أكثر الخلق متخلف عنها، غير عامل بالأسباب الموصلة إليها، ولا متجرد من الموانع المانعة من تحصيلها جهلا وتهاونا واشتغالا بما يضر عما ينفع،

فمن الأسباب التي ذكرها العلماء التي تنال بها القناعة: مجاهدة النفس على الاتصاف بذلك، ولذلك النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: « وَمَنْ يَسْتَعْنِ يَغْنِهِ اللَّهُ » (٢٣)، من الأسباب أيضا التي تنال بها القناعة: سؤال الله والإلحاح عليه ودعائه أن يعينه على الوصول إلى هذه المرتبة، فإن من اجتهد واستعان بالله وألح عليه في السؤال لم يخيبه الله، فإنه أمر بالدعاء ووعده عليه الإجابة في جميع الأدعية التي أفضلها وأعلاها أن تدعو الله بالتوفيق لمراضيه، وبالحفظ والوقاية عند مناهيه، فما خاب من سأله ورجاه، ولا خاب من طمع في تحصيل فضله خيره وهداه، فالله عَزَّوَجَلَّ يقول: ﴿ وَقَالَ رَبُّكُمْ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ ﴾ [غافر: ٦٠]، فسؤال الله أن يعينه على الوصول إلى هذه المرتبة مرتبة القناعة، أيضا من الأسباب التي تنال بها القناعة:

(٢٣) رواه البخاري (١٤٢٧)، ومسلم (١٠٥٣).

علم العبد أن الله تعالى عنده جميع مطالب السائلين،
 وبيده خزائن الخيرات والبركات، وأنه ما يفتح للناس
 من رحمة فلا ممسك لها، وما يمسك إلا هو وأنه هو
 النافع الضار والمعطي المانع، وأن الخلق ليس بيدهم
 من هذه الأمور من شيء، وأنهم جميعا مهما كانت
 أحوالهم ومراتبهم فإنهم فقراء إلى الله في كل شؤونهم،
 ومن عرف هذا حق المعرفة اضطرتة هذه المعرفة إلى
 تعليق الأمور كلها على الله، وتعلق القلب به وانقطاعه
 عن الخلق، وعلم العبد أنه كلما قويه تعلقه وطمعه
 في فضله آتاه من الخير والبركة وطيب الحياة ما لا
 يخطر ببال، من الأسباب التي تنال بها القناعة أيضا:
 علم العبد حق العلم أن تعلق القلب بالمخلوق يهبط
 بصاحبه لأسفل الدرجات ويجعله حقيرا ذليلا مهينا
 مهانا وأن ذلك غير نافع ولا مفيد وضره كبير أيضا
 وشره مستطير، أيضا من الأسباب التي تنال بها القناعة:

علم العبد بأن افتقاره إلى الخلق وتعلقه بهم واستشرافه لما بين أيديهم وسؤالهم يجلب الهم والغم والأكدار والقلق وأن استغنائه وعدم تعلقه بهم يوجب راحة القلب وروحه وطمأننته، ثم أنه كلما قوي طمع العبد بالله وقوي رجاءه لديه، وقوي توكله عليه يسر الله له كل عسير، وهون عليه كل صعب ورزقه من حيث لا يحتسب وكفاه الهموم كلها، أيضا من الأسباب التي تنال بها القناعة: الرضا بقضاء الله وقدره، التسليم لأمره، العلم بأن الذي عند الله خير وأبقى، وسبب لغنى النفس، ومن ثم القناعة وترك الحرص والطمع، أيضا من الأسباب التي تنال بها القناعة: إذا أرحت هذه النفس من ذكر الزيادة من الدنيا، إذا حملت نفسك على درجة الخوف مما في يديها، الخوف من عدم شكر هذه الزيادات من الدنيا، إذا أرحت نفسك من ذكر الزيادة من الدنيا قنعت ورضيت وعففت عن طلب الدنيا

بالحرص والرغبة، ورجعت إلى الآخرة بالحرص عليها والرغبة فيها فإن النفس مبنية على أساس الطمع، من الأسباب التي تنال بها القناعة أيضا: تدريب النفس على الاقتصاد في المعيشة والرفق في الإنفاق إذا تيسر به في الحال ما يكفيه، لا يكون شديد الاضطراب لأجل المستقبل، ويعينه على ذلك قصر الأمل واليقين بأن رزقه لا بد أن يأتيه، وليعلم أن الشيطان يعده الفقر، أيضا من الأسباب التي تنال بها القناعة: أن يعرف ما في القناعة من عز الاستغناء، وما في الطمع والحرص من الذل، أن يتعرف على فوائد القناعة التي أشرنا إليها سابقا من خلال هذه المحاضرة، هكذا أن ينظر أبدا إلى من دونه في الدنيا، وإلى من فوقه في الدين هذا سبب مهم تنال به القناعة، أيضا من أهم الأسباب التي تنال بها القناعة: تدريب النفس على القناعة، فإن النفس الإنسانية دائمة التطلع لما عند الآخرين،

فإذا رد الإنسان نفسه عن ذلك وعرفها قيمه ما لديها من النعيم وأنه يكفي وقد يفضل عن بعض ما عند الآخرين، فإن النفس تقنع على الإنسان المحب للقناعة أن يأخذ نفسه بالتدرج والسياسة، فإذا اشتهدت أربعة أصناف فليشتر لها صنفين، ويقول لنفسه فيهما كفاية وبركة، وهكذا بالمرار تنمو أخلاق الإنسان، أيضا من الأسباب التي تنال بها القناعة: تقوية الإيمان ترويض القلب على الإيمان والغنى اليقين بأن الرزق مكتوب والإنسان في رحم أمه، تدبر آيات القران ولا سيما الآيات التي تتحدث عن قضيه الرزق والاكتساب، هذه أسباب مهمة توجد هذه القناعة، تنال بها القناعة، معرفة حكمه الله عَزَّوَجَلَّ في تفاوت الأرزاق والمراتب بين العباد، الإكثار من سؤال الله عَزَّوَجَلَّ الإلحاح بالدعاء في ذلك، النظر إلى سيرة النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وسيرة سلفنا الصالح والصالحين، النظر إلى حال من هو أقل منك في أمور الدنيا،

قال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**انظُرُوا إِلَى مَنْ هُوَ أَسْفَلَ مِنْكُمْ وَلَا تَنْظُرُوا إِلَى مَنْ هُوَ فَوْقَكُمْ فَهُوَ أَجْدَرُ أَنْ لَا تَزْدَرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ**»^(٢٤)، أسباب كثيرة أشرنا إلى بعضها،

ومنها أيضا: قراءة سير السلف الصالح وأحوالهم مع الدنيا والزهد فيها والقناعة بالقليل منها، وهم قد أدركوا الكثير منها فرفضوه إثارا للباقية على العاجلة، أيضا من الأسباب التي تنال بها القناعة: العلم بأن عاقبة الغنى شر وبال على صاحبه إذا لم يكن الاكتساب والصرف منه بالطرق المشروعة، وقد

قال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**لَا تَزُولُ قَدَمَا عَبْدٍ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حَتَّى يُسْأَلَ عَنْ عُمُرِهِ فِيمَا أَفْنَاهُ، وَعَنْ عِلْمِهِ فِيمَ فَعَلَ، وَعَنْ مَالِهِ مِنْ أَيْنَ اكْتَسَبَهُ وَفِيمَ أَنْفَقَهُ، وَعَنْ جِسْمِهِ فِيمَ أَبْلَاهُ**»^(٢٥)، ثم ليتفكر في أنه كلما تخفف من هذا المال،

وكان أقل كان حسابه أيسر وأسرع، نسأل الله عَزَّ وَجَلَّ

(٢٤) رواه البخاري (٦٤٩٠)، ومسلم (٢٩٦٣)

(٢٥) رواه الترمذي (٢٤١٧).

وإياكم العافية، هذه بعض الأسباب التي تنال بها القناعة، نسأله **عَزَّجَلَّ** أن يعيننا وإياكم على الأخذ بهذه الأسباب، نختم ببعض ما قاله بعض شعراء الحكمة فيما يتعلق بالقناعة، يقول أبو ذؤيب الهذلي:

والتَّسُّ رَاغِبَةٌ إِذَا رَغَبْتَهَا وَإِذَا تُرِدُّ إِلَى قَلِيلٍ تَقْنَعُ

ويقول علي زين العابدين **رَحِمَهُ اللَّهُ**:

خَذِ الْقَنَاعَةَ مِنْ دُنْيَاكَ وَارْضَ بِهَا لَوْ لَمْ يَكُنْ لَكَ إِلَّا رَاحَةُ الْبَدَنِ
وَانظُرْ إِلَى مَنْ حَوَى الدُّنْيَا بِأَجْمَعِهَا هَلْ رَاحَ مِنْهَا بغيرِ الْقُطْنِ وَالْكَفَنِ

ويقول آخر:

اضرع إلى الله لا تضرع إلى النَّاسِ واقنع بعزِّ فإنَّ العزَّ في الياس
واستغن عن كلِّ ذي قربي وذي رحم إنَّ الغنيَّ من استغنى عن النَّاسِ

وهكذا يقول أبو فراس الحمداني:

إنَّ الغنيَّ هو الغنيَّ بذاته ولو أنه عاري المناكب حافي
ما كلُّ ما فوق البسيط كافيا فإذا قنعت فكلُّ شيء كافيا

ويقول إبراهيم الصولي :

لا تأسفن على الدنيا وما فيها فالموت لا شك يفينا ويفنيها
 ومن يكن همه الدنيا ليجمعها فسوف يوما على رغم يخليها
 لا تشبع النفس من دنيا تجمعها وبلغه من قوام العيش تكفيها
 النفس تطمع في الدنيا وقد علمت أن السلامة منها ترك ما فيها
 والله لو قنعت نفسي بما رزقت من المعيشة إلا كان يكفيها
 والله والله أيمان مكررة ثلاثة عن يمين بعد ثانيها
 لو أن في صحرة صما مللملة في البحر راسية ملس نواحيها
 رزقا لعبد براها الله لانفلقت حتى تؤدي إليه كل ما فيها
 أو كان فوق طباق السبع مسلكتها لسهل الله في المرقى مراقيها
 حتى ينال الذي في اللوح خطله فإن أتته وإلا سوف يأتيها

هذه أبيات ومن الشعر لحكمة كما قال النبي

صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : « **إِنَّ مِنَ الشُّعْرِ حِكْمَةً** » (٢٦).

نسأل الله **عَزَّوَجَلَّ** أن يقنعا وإياكم، وأن يرزقنا هذا
 الخلق، كما نسأله **عَزَّوَجَلَّ** أن يفقهنا وإياكم في ديننا،

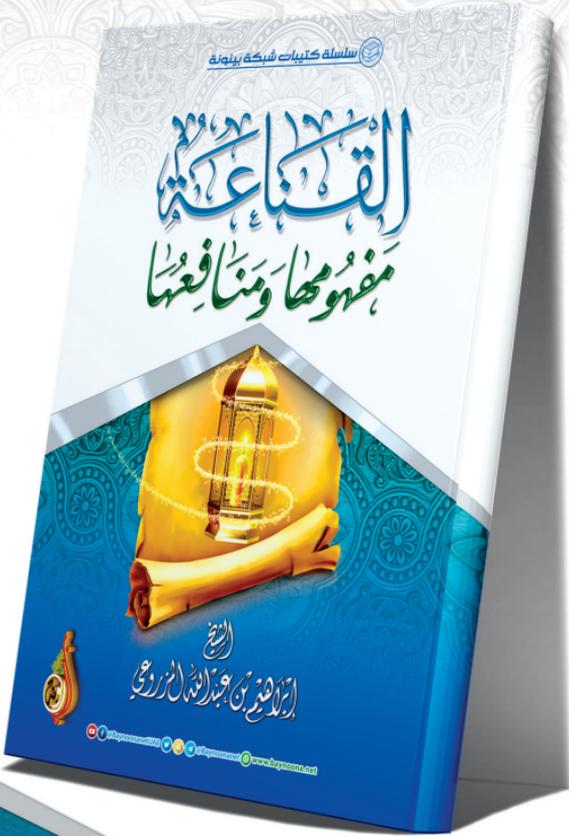
(٢٦) رواه البخاري (٦١٤٥).

القبائح ممنوحا ومنافعا

وأن يحفظ بلادنا وبلاد المسلمين من كل سوء وفتنه،
ونسأله **عَزَّوَجَلَّ** أن يوفقه ولاة أمورنا لما يحبه ويرضاه،
وأن يرزقهم البطانة الصالحة، اللهم إنا نسأل علما نافعا
وقلبا خاشعا ودعاء مستجابا، ربنا آتنا في الدنيا حسنة
وفي الآخرة حسنة وقنا عذاب النار.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين، وصلى الله
على محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

حقوق الطبع محفوظة



شبكة بينونة للعلوم الشرعية